

في القومية العربية

إذا كان في اهتمام الشباب ببحث القومية ما يدعو إلى الاستبشار فإن في طريقة بحثهم لها ما يدعو إلى كثير من الحذر والقلق . فلقد أصبحت القومية عندهم نظرية من النظريات، يمكن الأخذ بها كما يمكن رفضها، ان لم أقل موضوعا من موضوعات الانشاء وبابا من أبواب الصحف والمجلات .

ان اقبالا شديدا كالذي نراه على هذا الموضوع ليخيف أكثر مما يطمئن، لأنه كثير الشبه بالاقبال على زي جديد من أزياء اللباس واللهور . والزي الجديد سرعان ما يصبح قديما ويهجر بمثل الشدة التي قبل بها .

كل ذلك لأن « قوميتنا » أيضا تأتينا من الخارج بدلا من ان تنبعث من أعماقنا . ان الشجرة التي تفصل عن الارض - مهما عظيم حجمها - لا تلبث أن تجف وتخف حتى تبددها الرياح وتستحيل هباء . . بينما البذرة التي تولد في الخفاء، ما تزال تنمو وتشتد حتى تزدهر ويملا أريجها الفضاء . . . أنجعل قوميتنا وهي أساس حياتنا نظرية من النظريات فتركها عرضة لتقلبات المنطق والذوق والهوى فننادي بها اليوم ونؤثر عليها الأممية والشيوعية غدا، ونعتنق الدعوة الدينية بعد غد؟ أنفهمها فهما ضيقا فנסاويها بأجزائها وعناصرها ونخير بين ان نسخر لها الفكر والفن ونضحي من أجلها بالحرية وبين أن نستعظم التضحية فنقدمها ذبيحة لكل هذه الأشياء؟ .

أنحصرها في ساحة محدودة من الوعي ونسجنها في تعريف كما فعل علماء الكلام بالدين قديما، فنحكم عليها بالهزال والفقر، والنضوب والعقم، ونقضي على جذورها المستترة في ظلام الارض، وبراعمها الخبيثة في وهج النور؟

ان هذه القومية التي تأتينا من اوربا مع الكتب والمجلات تهددنا بخطر مزدوج، فهي من جهة تنسينا شخصيتنا وتشوهها، ومن جهة أخرى تسلبنا واقعنا الحي وتعطينا بدلا منه ألفاظا فارغة ورموزا مجردة . فبحث القومية على الاسلوب الاوروبي يعلمنا بآمال كاذبة، فيوهنا اننا نبلغ ما بلغته الامم الاوروبية العظمى بأخذنا بعض مظاهرها - أي بضرب من السحر - كما انه يورثنا امراضا ومشاكل وهمية فنشعر بنفس

الامراض والمشاكل التي تعانها تلك الامم .

ان الخطر الأكبر هو الايغال في التفكير المجرد . التفكير المجرد يوهمنا ان الواقع جامد ساكن عام في مادته الاولى ، نستطيع أن نحلله ونشرحه الى عناصر مستقلة ، نعيد تركيبها ونبدل بعضها من بعض كما يحلو لنا ، مع ان الواقع الحي كل متماسك منسجم ، حي بتماسكه ووحدته ، سابق لكل تحليل ، ذو فردية كاملة بذاتها . التفكير المجرد يعري الاشياء من لحمها ودمها ويفقدها لونها وطعمها ، ويبعدها عن الدقة والضبط ، فالاضداد تتشابه ، والمتفاوتات تتعادل ، لأنها أصبحت كلها ألفاظا ، واللفظة تساوي لفظة مثلها .

أية آلة دقيقة محكمة الصنع هي هذه القومية التي تحتم ، كلما عرضت مسألتها في مكان ، أن تنتج عنها نفس النتائج وتجاهه ذات المعضلات ؟ ان الذين يدخلون القومية في هذا الجو المجرد المفرغ من الهواء ، لا يخطر ببالهم أنهم ينقلهم لفظة من موضع إلى آخر يزعزعون الجبال ويزلزلون الأرض ، وانهم باهمالهم لفظة أخرى يقطعون اوصال الحياة ويحزون في شرايينها ، ويحلون في ساعة ما نسجه الزمن في دماء أجيال . وان في مقارنة القومية بالدين والتقاليد والفن مثلا ما ينم عن اخلال بدقة التفكير وفهم جزئي للقومية كأنها شيء مستقل عن الدين والتقاليد والفن ، مع أنها التربة التي تنمو فيها مواهب أمة ما في كل الميادين . وعلى هذا لا يعود جائزا أن تختلق خصومة بينها وبين أحد أجزائها الأصيلة المنبعثة منها ، ولا ان نساويها به . ان التفكير المجرد منطقي مع نفسه اذ يقرر ان القومية لا بد ان تصطدم بالدين مثلا لأنهما يختلفان في المنبع والمظاهر .

ولكن لنهجر اللفظ قليلا ولنسم الاشياء بأسمائها وصفاتها المميزة ، فنستبدل بالقومية «العروبة» وبالدين «الاسلام» تظهر لنا المسألة تحت ضوء جديد ، فالاسلام في حقيقته الصافية نشأ في قلب العروبة وأفصح عن عبقريتها أحسن افصاح وسائر تاريخها وامتزج به في أمجد أدواره ، فلا يمكن أن يكون ثمة اصطدام . وبعد فهل القومية محصورة بالارض كما يظن ، بعيدة كل البعد عن السماء ، حتى يعتبر الدين شاغلا عنها مبذرا لبعض ثروتها ، بدلا من اعتباره جزءا منها مغذيا لها ومفصحا عن

أهم نواحيها الروحية والمثالية؟

إن القومية العربية ليست نظرية ولكنها مبعث النظريات، ولا هي وليدة الفكر بل مرضعته، وليست مستعبدة الفن بل نبعه وروحه، وليس بين الحرية وبينها تضاد، لأنها هي الحرية، إذا ما انطلقت في سيرها الطبيعي وتحققت ملء قدرتها.

ثمة فرق جوهري بين الجسم الحي، مهما كان ضئيلا بسيطا وبين الجسم الآلي الذي يريد تقليد الحياة والتشبه بها، مهما أتقن الصانعون صنعه وأفرغوا فيه فنههم ومهارتهم. الآلة خارجة عن مجرى الحياة وغير متصلة بالزمان. فلا يحسب الذين يستعيرون النظريات القومية والفلسفية الأجنبية ويكدسونها بعضا فوق بعض ليركبوا منها القومية العربية، أنهم بوضعهم الثياب الجميلة على عصا يوهموننا بأنها تحيا. اننا لا نزال نشعر أن هناك جسما حيا أهملوه وتعاموا عنه، انه ما زال عاريا. قد يكون هزيلا ولكنه جميل، وجماله لا لشيء، سوى انه حي.

كثيرا ما نسمع: «أنتم أفضل من هذه الأمة أو تلك! انها مرت على هذه المراحل ونجحت بهذه الأساليب!».

لسنا ندعي اننا أفضل من غيرنا، لكننا مختلفون عنهم: وهذا الاختلاف هو الذي يجعلنا عربا ويجعلهم غير عرب. ولسنا نقول بضرر الاطلاع على النظريات الرائجة عندهم بل نعتقد ان فائدة هذا الاطلاع يجب أن تبقى سليمة، اي ان نعرف بواسطته كل الاشياء التي ليست لنا، فان ذلك يقربنا من فهم حقيقتنا وحاجتنا.

كل تفسير للقومية العربية لا ينبعث من صميمها، انبعاث الغرسة من الارض والسنبلة من القمحة يكون تفسيراً ضالاً جامداً ميتاً. وكل نظرية عن العروبة يصح أن تقال على السواء عن فرنسة القرن الثامن عشر وعن اليونان في عهد افلاطون، نظرية زائفة آلية، لأنها لا تنبئ عن خصائص المكان ولا يستشف منها انسياب الزمن. وليكفوا عن التذرع بالاشياء الخالدة المشتركة اذ لاشيء خالداً ومشاركاً بين البشر غير التحول والاختلاف.

لا يصبح العرب قوميين باعترافهم فكرة القومية فهي ليست فكرة. ولا بعملية حب وايمان وازادة، فهي شروط لازمة للقومية ولكنها ليست اياها. جعل القومية فكرة

تعتنق يضيف الى طوائف العرب طائفة جديدة ويضع على النفس العربية طلاء فوق القشور الموجودة التي تغشاها، ويزيدنا تفرقة ويباعد ما بين التجانس وبيننا. لا يحتاج العرب الى تعلم شيء جديد ليصبحوا قوميين، بل الى اهمال كثير مما تعلموه حتى تعود اليهم صلتهم المباشرة بطبعهم الصافي الاصيل. القومية ليست علما بل هي تذکر، تذکر حي.

وهذه المعجزة التي يسعون اليها ويتلوون على ألف شكل لكي يعثروا عليها، ما عسى تكون دهشتهم عندما تظهر فيهم نقية، كاملة، بسيطة بساطة المعجزات، اذا هم تركوا الحياة تستعيد فيهم عفويتها وحررتها وتملاً كل سعتها. عبثا ينشدون قوميتهم بتحليلها من الخارج الى عناصرها، وتركيبها تركيباً صناعياً مستوحى من الكتب والتفكير المجرد ومثال الامم الأجنبية، انهم لن يجدوها الا في داخلهم مركبة وواحدة معا كما هي في الواقع وكل شيء حي متداخل الاجزاء، لا يفصل عنها جزء الا ويفقدها الحياة. هي في أعمالنا الماضية وآلامنا الحاضرة، في فضائلنا وعيوبنا، في تاريخنا المسطور في الكتب وتاريخنا المحفور على حنايا الضلوع، الذي يقرر أكثر اتجاهاتنا ويغذي معظم أحلامنا.

عام ١٩٤١